

## وظيفة الفن والصحافة في بناء المجتمع وتوجيهه

بقلم الأستاذ سيد قطب

لا أستطيع أن أسلم لحظة واحدة بقبص أجنحة الفن الجميلة التي يسمونها عن الواقع المحدود حين يريد ، ويحلق بها بعيدا عن قيود الضرورة وعن الصراع الأرضي المضمّن في سبيل لقمة العيش وضروريات الحياة .

وفي اعتقادي أن هذا يتنافى من أساسه مع وظيفة الفن ومبعثه الأصيل في النفس الإنسانية . فهذه النفس أكبر من ضرورات العيش اليومية ، ومطالبها لا تنتهي عند لقمة الخبز ، بل تتبدى من هذه النهاية . وهي لا تبذل لضرورات العيش إلا الجهد الذي تحصل به على هذه الضرورات فإذا ادركتها سارعت إلى تلبية الأشواق العلوية فيها . أي سارعت إلى الفن تحاول أن تجده عنده مالا تجده في هذا العالم الأرضي المحدود . فإذا شغل الفن نفسه بمطالب العيش كذلك لم تجده هذه النفس مهربا من حين العيش الضيق ، وبطلت وظيفة الفن من أساسها كما نقول .

ولقد ضاقت فسحة الأرض عن أشواق النفس الإنسانية حتى في إبان طفولتها ، فتطلعت إلى الدين ليهبها عالما آخر أفسح من عالم الأرض المحدود أو لتجد فيه على الأقل قوة أخرى أكبر من القوى الأرضية الصغيرة ، وتطلعت إلى الفن ليهبها عالما آخر أجمل من عالم الواقع ، أو لترى فيه على الأقل جمالا أحلى من المشاهد اليومية المألوفة . ولو كلّمت لقمة الخبز والصراع عليها تستغرق طاقة النفس الإنسانية كلها لكانت خائفة أن تستغرقها وهي في طور السذاجة البدائية ، وقبل أن تطوع قوى الطبيعة المادية لخدمتها وراحتها كما هو الحال الآن .

وكل دعوة إلى قص أجنحة الفن الجميلة ، وحصره في دائرة الصراع الأرضي ، وفي مطالب العيش ونضال الطبقات ... إنما تصدر عن ضيق في النفس وارتكاس إلى الطور الحيواني في حياة الإنسان ، قبل أن تنبض في نفسه الحاسة الذهنية ، التي تترع به حتما إلى التحليق فوق الواقع ، والانفلات من ضرورات العيش وأنقال المادة .

وإن يغفل حساب الأشواق المجهولة في النفس الإنسانية ، وحساب التطلع إلى المثل العليا ، إلا إنسان فرغت نفسه من النوازع الإنسانية ، واستغرقه الجانب الحيواني في حسه إلى أقصى الحدود . فإذا لم نغفل هذا التطلع وتلك الأشواق لم يكن بد من أن نطلق الحرية للفن ، ليزتاد بنا عوامل أخرى أجمل من عالمنا المحدود ، أو على الأقل ليعمق ويوسع جوانب هذا العالم المشهود ويكشف عما فيه من محاسن ومفاتيح ، ويروح عن نفوسنا من صراع العيش ونضال الطبقات .

أما تثقيف الجمهور والنحس عن مشاكله ، وتوجيه التوجيه المباشر في الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، وسائر ضرورات الحياة ، فوظيفة أخرى واجبة تنهض بها المدرسة وتنهض بها الصحافة ، وينهض بها رجال السياسة والاجتماع بالخطابة والكتابة وجميع الوسائل الأخرى . حتى إذا شبعت النفوس من هذه المادة الأرضية ، وأحست برغبة في إشباع الجانب العلوى فيها ، وفي إرواء حاسة الجمال والطلاقة تلتفت حينئذ الى الفن فوجدت عنده شيئاً آخر غير هذا "الوحد" الأرضى ، أجهل وأعلى وأخلد ، من كل ما كانت فيه ؟ تختلف وظيفة الصحافة إذا عن وظيفة الفن بالتقياس الى المجتمع . ولكننى لا أحب أن يفهم الناس من هذا أن الفن شىء كمالى أو لا وظيفة له في الحياة .

فالفن ليس أمراً كالياً لأنه ضرورة نفسية تعادل الضرورة الجسدية ، فإذا اقتضى الجسد وإشاعاته الذهنية مطالب وضرورات لا بد منها لدوام الحياة ، فإن الروح تقتضى كذلك مطالب وضرورات لا بد منها لرقى الحياة . هذه المطالب والضرورات النفسية هى وظيفة الفن كما هى - في وضع آخر - من وظيفة الدين . لا بل إن الدين ليأخذ نفسه بتنظيم المجتمع بجانب ما يهبه للروح الانسانية من العقيدة العلوية ، أما الفن فليس مطالباً بهذا التنظيم ، لأنه لا يأخذ نفسه إلا بتزويد الروح الانسانية بالعقيدة الفنية أو باللذة الوجدانية ، وهذه اللذة الفنية ليست شيئاً كالياً كما قلت إنما هى ضرورة انسانية كضرورة الطعام والشراب ، وإن يستغنى عنها إلا الكائن الحيوانى الذى لا فسحة فى حسه لغير الطعام والشراب !

وللفن وظيفة أساسية هى ترقية الحياة . فهو أبداً إما أن يبرز لنا أجهل ما فى هذه الحياة وإما أن يرفرف الى عوالم أخرى أجهل من العالم المحسوس ، وهو فى أثناء ذلك يرهف الحس ويشوق النفس الى هذا الجمال المكنون أو المتخيل فيبرز الحياة التى تفصل بين الواقع الناقص المشوه الذى نعيش فيه وبين الصورة الجميلة التى يبرزها أو يخلقها ، فتتطاع النفوس اليها ، وتبذل الجهد والمال والحياة فى بعض الأحيان لتحقيقها . وهذا ما نعنيه بترقية الحياة ، التى لم تكن لتتحقق اولا الحاسة الفنية التى تتطلع دائماً الى الأسمى والأجمل والأخلد .

وليس هذا كلاماً يقال . إنما هو قول ضرورى لتحليل كل تضحية يبذلها فرد فى سبيل مثل أعلى من أى نوع وفى أى اتجاه . هذه التضحية التى تتناول الجهد أو المال أو الحياة نفسها ، لتحقيق هدف أكبر من ضرورات العيش بل أكبر من الحياة .

وللفن وظيفة اذن يؤديها أرفع من وظيفة الصحافة والخطابة والسياسة ، وأرفع من الإصلاح الاجتماعى المحدود ، ولكن هذه الوظيفة لا تتنازع مع الإصلاح الاجتماعى ، بل هى تؤيده وتدعو اليه ، ولكن من طريق غير مباشر ، طريق الحرية التى تتطلب ما هو أكبر من الواقع وما هو أجهل من الواقع ، وطريق ارهاق الحس للسخط على النقص والقبح والنشاز وطلب الكمال والجمال والانسجام .

فالفنان رسول اصلاح اجتماعى ، ولكنه ليس داعية اجتماعيا ، أو على الأقل لا يجوز أن نكلفه مهمة الدعوة المباشرة لأنه بوسائله الخاصة يترك أثرا أعمق وأخلد من أثر الداعى المباشر ، فإن ميدان عمله هو جوهر النفس الإنسانية ، وماهية عمله هي اعداد هذه النفس لتقبل دعوة الخير والجمال ، والسخط على القبح والنقص ، فى كل صورة وكل وضع ، فى ميدان الاجتماع أو الاقتصاد أو الأخلاق .

ولكن بعض الفن يتجه فعلا الى الاشتغال بالواقع ، فيغمر نفسه فى صراع الطبقات ، أو يعنى بالتوجيه الخلقى أو الاجتماعى المباشر ، أو يتجه الى العكس فيلجئ القرائز وضرورات الجسد ، أو يتخذ وسائل العلم فى التحليل والتعليل . وأنا لا أتردد فى الحكم على هذا اللون من الفنون بالانحراف عن جادة الفن وبالمهبط عن مستواه الرفيع ، مهما بلغ من الدقة والجودة . فسبيل الفن أن يدعونا دائما الى ما هو أكبر من الواقع وأجمل من المحسوس ، والانسانية تقضى معظم وقتها فى صراع العيش وضرورات الغريزة حتى تمل هذه وذلك ، فاقيمة فن يردنا بعد ذلك الى مثل ما كانت فيه ، بحجة أن ما يصوره "واقعى" ؟ إن كونه واقعى بهذا المعنى المحدود هو الداعى لأن تتجاهف الفنون . فالمثل العليا والرغبات المكنونة هي الأخرى "واقعية" بالقياس الى النفس الانسانية ، ذات القوتين الكبيرتين : قوة الحرص على دوام الحياة ، وقوة الحرص على رقى الحياة .

"الواقعية" إذن لا تصلح حجة لشغل الفن بالأمر المحدودة والضرورات الملحة ، لأن هناك ضرورات روحية واقعية كذلك تتطلب الطلاقة من كل هذه القيود. ولكن لا يفهم أحد من هذا أن الفن إذن هو "التخريف" أو "التجديف" لحدود الفن هي الجمال والجمال لا يكون مع الفوضى أو الانحلال .

ونصل بهذا الى نقطة أخرى فى الموضوع هي صلة الفن والصحافة بالجمهور ، وكيف تكون ليتحقق نجاحها فى أداء وظيفتها .

بعض المشتغلين بالفن والصحافة فى مصر ينظرون الى الرواج كأنه غاية النجاح المطلوب ، وتلك نظرة تجار مستريحين ، لا نظرة فنانين ولا صحفيين . والرواج مع هذا - ليس عيبا ولا مذموما ، ولكن يجب أن ينظر فى الحكم عليه - الى السبب والوسيلة .

ففى كل نفس إنسانية - مهما انحطت - خيطان متجادبان : الخيط الأول هو تلبية الرغبات الغريزية والضرورات الوقتية ، والخيط الثانى هو تلبية الرغبات العلوية والضرورات الخالدة ، وبتعبير آخر خيط المهبط وخيط العمود . وفى كل نفس استعداد كامن للأمرين على السواء .

وطبيعى أن تلبية الغريزة ألد وأسهل من تلبية الروح ، والجهد الذى يبذل لاستمالة إنسان ما الى طريق الانحدار أسر بكثير من الجهد الذى يبذل فى استمالة الى طريق التسامى

ولكن شرف الفن وكرامة الصحافة يجب أن يتجها إلى الطريق الأخير ؛ وحينئذ يكون الرواج فضيلة ؛ كما يكون دليلا على المهارة الفنية أو الصحفية .

فلنتظر إلى الفن الرائج وإلى الصحافة الرائجة انرى أى الطريقين يسلكان فى هذا الجدل ؟ من المؤلم أن نقرر أن معظم الفن ومعظم الصحافة يتمسك بحيط المهبوط لا بحيط الصعود . ففن الغناء بلا استثناء فى هذا الجدل ، وشيء من التصوير ، وبعض من الشعر والكتابة ، وغالبية الأفلام السينمائية ومعظم المجلات الأسبوعية ... كل هؤلاء يتخذ إرضاء الفرائز الحيوانية سبيلا إلى الرواج والنجاح .

هذه المطربة التى تم وتهاك ، وهذا المطرب الذى يتكسر ويتفعل ، وهذا المصور الذى يبرز مطارح الغريزة بلا ضرورة ، وهذا الكاتب الذى يسجل نزوات الجسد ومقادير الغريزة ، وهذا الشاعر الذى يتعمد إيقاظ الشهوة المريضة ، وهذا المخرج الذى يبرز المنظر المثير وقد يكون زائدا فى الفيلم ، وهذه المجلات التى تنشر الصور الآدمية العارية ، وتصنف بجائزها مخازى البيوت ومساقط المجتمع ... كل هؤلاء إنما ينشدون الرواج من أقدار طريق ، لأنه أيسر طريق !

وتسألهم فى ذلك فيجيبون بأن الجمهور يريد ، وبأن الرواج دليل على رغبة الجمهور ... ونحن لا نجادل فى أن الجمهور يريد ، فما لا شك فيه أن للناس غرائز حيوانية ، وأنهم يستلذون كل ما يحرك هذه الغرائز ويأبها ، وأن هناك أناسا مقبوحين متبوذين من المجتمع كل عملهم هو تلبية هذه الغرائز ، وأعمالهم هذه رائجة ورائجة ، ولكن الرواج لا يقوم عذرا لهم أمام السلطات التى تحاربهم وتسد عليهم الطريق . أفيرضى رجال الفن والأدب والصحافة أن تروج أعمالهم على طريقة أولئك المتبوذين من المجتمع الراجين فى عالم القنود ؟ !

- إن الرواج ممكن ، ولكن لم عن طريق آخر - طريق جذب خيط الصعود - فى نفوس الجماهير ، وهذا يكلف مجهودا أشق ولا شك ، ولكنه هو اللائق بكرامة الفن والصحافة ، بل بكرامة الانسان الذى تنبأ نفسه فى كل لحظة للمهبوط أو للصعود حسب الدعوة التى توجه إليه من الداعين . وتلك هى المهارة الصحفية أو الفنية التى تستحق هذا الاسم .

وقد تسألهم فى ذلك فيجيبون بأننا نصور الواقع ، فالرذيلة موجودة فى المجتمع المصرى ، وما يزيد عملنا على كشفها والتنبيه إليها ! ونحن لا نجادل فى أن هناك رذيلة واقمة ، فما لا شك فيه أننا نمر بفترة انحلال خلقى ، ولكن إشاعة هذه الرذيلة والتعريف بها لا يقصر أمد هذه الفترة بل يطيل فيه .

والذى يحدث نتيجة لعرض الفضائح العائلية والزوات الغريزية فى الأدب والصحافة والأفلام والأغاني ؛ هو التمهيد لها فى النفوس ، وتقليل بشاعتها بحكم التكرار ، وإعطاء المثل للواقفين والواقفات على الحفاة ، وتسهيل وسائل السقوط والتعريف بها .

خذ مثلا لذلك نشر الصور العارية على البلاج بحجة أنها عارية على البلاج ! إن الذى كان واقعا هو أن مائة امرأة مثلا تراهن ألف عين على الشاطئ ، قبل نشر صورهن ، فأما حين تنشر فإن عشرين ألف عين على الأقل تتطلع الى هذه الأجساد ، وتحرك غرائزها المخنوقة ، وتسبح فى خيالات اليقظة وهى شر الخيالات !

وذلك فضلا عن الحقيقة النفسية الواقعة ، وهى أن رؤية الجسم العارى على الشاطئ لا تثير من الغرائز ما تثيره الصورة المنشورة فى صحيفة إذ أن الخيال فى الحالة الأولى لا ينشط لأن العين تفتيه عن النشاط أما فى الحالة الثانية فالخيال ينشط ليتصور الواقع ، وفى أثناء هذا النشاط تحرك أحظ نوازع البهيم الكامنة فى كل إنسان !

ومثل هذا الشر وأكثريه كلما ارتفعت تأوهات مطربة وشهقاتها فى الراديو ، وهناك آلاف الآذان تتخيل الحركات والأوضاع من وراء الميكروفون ، وأحظ من ذلك ما يتبع عندما يتبع مطرب ويتدغدغ وهو يرسل بنبرات ونغمات يغجل منها "الرجل" فى كل حال ! وإذا استطعنا أن نتفكر بعض هذا للمطربات والمطربين ، فإن نستطيع أن نتفكر لبعض الأقلام الارتكاس الى هذه الحمأة التى يرتكس فيها بعض الكتاب وبعض الشعراء ليناوا الشهرة والرواج . إن بعض الروايات وبعض الدواوين ، صندوق قاذورات غريزية ، ومسيل وحل جنسى ، لا أقل ولا أكثر . وهم يسمونه أدبا وفنا وشعرا بلا نجل ولا حياء !

\*  
\*  
\*

ليس على الفن إذن أن يخضع لضرورات العيش وصراع الطبقات ، ولكن ليس له كذلك أن يهبط الى تمليق الغرائز وإثارة الشهوات . وليس الفن متعللا لا وظيفة له فى الحياة ولكن ليس من وظائفه كذلك أن يرتكس الى مقاذر الحياة !

إن وظيفة الفن الخالدة ، هى الإشعاع ، الإشعاع الذى يكشف عما فى الكون من جمال مشهود ، وعما فى الغيب من جمال موعود ، وهى تعميق الحياة وتوسيعها ووصلها بالخلود ، وهى الارتفاع عن الضرورات تلبية للرغبة الانسانية فى الانطلاق .

وهو بهذا يحفز الى ترقية الحياة . ترقيتها بالتطلع وبالتسامى وبالتضحية بكل متاع الحياة ، بل بالحياة نفسها عند الاقتضاء .

وليس معنى هذا أن يقوم الفن مقام الوعاظ والخطباء ، فإن له طرائقه ومدخله فى النفوس ، هذه الطرائق التى ليس منها التوجيه المباشر على سنة الوعاظ !

وإن للفن وللصحافة لواجبا مشتركا يؤدى كل منهما على طريقته الخاصة . ولكن لا يدخل فى هذه الطريقة تمليق الغرائز وتأبية الرغائب ، فإن هناك خيطا آخر فى النفس الانسانية يؤدى الى النجاح والرواج .

سيد قطاب